تجديد القراءة (من النقل إلى الإبداع)

د. مدني مدور(*)

مقدمة

إذا كان كل نص، عقب تدوينه سيمثل المحور(الثابت)، فإن القراءة التي ستتناول هذا النص، و إن تفاوت زمن إنتاجه قدما أو حداثة، ستمثل المحور(المتغير)، وتغير القراءة هو الضامن لتحقيق إعادة إنتاج أي نص مهما تباعدت الأزمنة، إنما الذي يهم هو استثمار التجربة ومختلف المعارف في دورة أخرى لصالح عصر آخر.

من هنا ستفقد القراءة فاعليتها متى ظلت منحازة لأدوات خارج عن معطيات عصرها، لينشد القراء في الآن نفسه نتائج تتوسل الجديد الذي لا يتحقق لهم، وليس له أن يتحقق ما دامت المنطلقات والمقدمات هي نفسها.

يحتل القرآن الكريم موقع الصدارة في حياة المسلمين، منذ لحظة نزوله إلى غاية اكتماله وتدوينه بين دفتي مصحف موحد، وستظهر حوله علوم مختلفة باختلاف الرؤى والأدوات، إنما الذي يهمنا هنا تحديدا، هو هذا التفاعل المباشر من فهم وشرح، يتم الاستفادة من محصل نتائجهما، بلورة نظرة جديدة للمسلم، تمد من سعة مداركه وتفتح له آفاق آراء تخدم عصره، وتوجه تفاعله وسلوكه، من هنا فقد تعددت القراءات التي تمحورت حول نص القرآن، وكان اللافت منها خصوصا تلك القراءات التي تزامنت مع القرنين الأخيرين حيث رافقتهما في الغالب الأعم، التماس نوع من الخلاص لتخلف المسلمين بفعل استمداد صنوف التجارب والحكم، من خلال هذا المصدر المعرفي المركزي الذي حقق للسلف ما حقق.

يمثل كتاب (الظاهرة القرآنية)، لمؤلفه مالك بن نبي، أحد تلك القراءات الطامحة للقرآن الكريم، وقد جاء إخراجه مع جملة من الظروف والتحديات، لتشكل مختلف هذه المعطيات

(*) جامعة باتنة -١-الجزائر.

عوامل إثراء لمعالجات متباينة، يكون إخراجها خاضعا للأهداف المرسومة، لأن الذي يسعى إلى معرفة الكيفية التي تم من خلالها التفاعل مع القرآن في أول نزوله، وتلقف الرسول والصحابة للوحي المنزل واستمرار التابعين وبذلهم العناية به، وقد أدى ذلك إلى تشكل قناعة راسخة بمضمونه، على أن الإحاطة بتلك المرحلة ستجعل صاحبها أكثر فهما واستيعابا للكتاب المنزل، وليكون التوجه للقراءة وفق هذه المعطيات - كما صنفها القدماء- هي القراءة بالمأثور. بينما يكون فحص النصوص وترجيح رواية عن أخرى وهكذا، يعبر عن بداية الانفصال عن القراءة التي تسلم بمختلف النصوص، أما من كان سعيه تتبع الآراء التي نشأت حول النص، وناشدت التوجهات التي تشكلت لاحقا في إطار ما يصطلح عليه بالتفسير ب(الرأي)، فقد حاولت أن تأخذ بالآراء وتحكيم العقل، وقد قدم الفقهاء اجتهاداتهم، والمعتزلة، وبعض الصوفية بدورهم حاولوا تقديم آراء جديدة وفق متطلبات عصرهم، لأن ذلك يوفر مزيدا من المساحة المتاحة للتأويل وعدم الارتباط بحرفية النص ويتيح فرصة تفسير القرآن حسب معطيات الزمان والمكان.

من هنا ستكون قراءة مالك بن نبي، أقرب إلى هذه القراءة الأخيرة، ولمزيد من التتبع والإحاطة بآراء المؤلف المبثوثة في كتابه(الظاهرة القرآنية)، سنحاول الإجابة عن التساؤلات الموالية: ماهي ملامح تجديد القراءة؟ ماهي علاقتها من حيث تفعيل علاقة الإنسان المعاصر بالقرآن؟ كيف نمكن لنص القرآن؟

ستتم المعالجة ضمن هذا البحث للمسألة، عبر فقرات أربعة، نلتمس من خلالها الإجابة التالية حول هذه التساؤلات.

١ـ تمكين النص

يرتسم المشهد أمام مؤلف (الظاهرة القرآنية)، سواء صرح بذلك أم ألمح إليه إلماحا مباشرا أو ضمنيا، وفق المعطيين التاليين: من داخل العالم الإسلامي والعربي تحديدا، الذي يعرف تخلفه سلفا، وعجزه الحضاري عن إنتاج أفكاره، أو الإسهام في هذا المجال بكيفية من الكيفيات؛ وبالتالي ستتحول الكثير من الممارسات من داخل هذا العالم ومن طرف السواد الأعظم من العقول وماتم توطين الأذهان عليه، إلى ممارسة تقليدية، والأمر لا يقتصر على معرفة دون أخرى بل يشمل كل الحياة العقلية، ويمتد ليطال الدين والعلاقة مع القرآن، حيث سيصبح

الاتصال، بنص القرآن، عبارة عن عملية طقسية لا تقول شيئا ولا تضيف شيئا، ورد الفعل حيال هـذا النص الخالـد، عاطفية لا تخرج عن هـذا الإطار، والنتيجة (نص معـزول). وأما الموقف من الإسـلام وتحديدا من القرآن، الصادر هـذه المرة عن العالم المحيط، والذي هو أكثر تقدما وأقـدر على الفعـل الحضاري، وبما أنه كذلك فقد تمكن في مختلـف الميادين، وتحول هذا العالم الغربي إلى حركة اسـتعمارية، تربطها مصالح مادية ضخمة بالعالم الإسـلامي، وتلك المصالح لا يمكن التفريط فيها تحت أي مبرر.

من هنا فإن الموقف الفكري الخارجي للغرب من القرآن الذي سيمثله الخطاب الاستشراقي وتحت غطاء العقلانية، سـيكون منسجما مع خطه الاستعماري، أما مجمل تلك الآراء الصادرة عنه بهذا الخصوص، فقد جاءت من خلال مبرر (الموضوعية)، لإثارة كثير من الشـكوك حول النبـوة، والقرآن، وقد تناغمت النخب المحلية الإسـلامية العربية، مع هذا التوجه بفعل المؤثر الحضاري، والانبهار بالنزعة العقلية، حيث سـتثار نقاشـات ويتم تـداول العديد من الأفكار بخصـوص (نص القـرآن)، ليكون مـؤدى ذلك كله طـرح أفكار بخصوص مـدى صحة نص القرآن والنبوة، وحديث يطول ويقصر حول حياة النبي وهكذا. ذلك كله سـيؤدي إلى مزيد من (عزلة النص). بناء عليه سـيكون جديرا بمن سـيخوض غمار هذا الجـدال، أن يواجه ذاته أولا، حيـث ينبغـي أن يعمـد إلى تجديـد قناعاته، وهو ما فعلـه المفكر مالك بـن نبي، انطلاقا من الشك إلى اليقين؛ وثانيا، مواجهة ما التبس على الخطابات الأخرى انطلاقا من داخل النسق المعرفي أو من محيطه أي الأفكار المتداولة من الخارج؟، بغرض تمكين النص القرآني.

١ـ١ـ الأسئلة الصادمة:

القرآن بما يحمله من مبادئ وقيم وتجارب، شـكلت الرصيـد الفعلي لثقافة القدماء، وبما أن هذا النص القرآني المتواتر الذي يبدد الشك حول صحته، خصوصا إذا عقدت من مقارنات مع بقية مصادر الديانات الأخرى، ليكون مؤدى ذلك استمرار خط التواصل بين الثقافة الإسلامية وهذا النص باستمرار العصور، أي أن الثقافة لا تستشعر تجاوز الزمن لمضامين هذا النص وعليه يظـل متاحـا في متناول الثقافة العربية المعاصرة التي لا يمكنهـا أن تقطع صلاتها مع هذا النص مهما كان الأمر، أو قل حتى وإن تم افتعال أسباب لهذا الغرض. يبقى بعد ذلك الشغل الشاغل حول التصدي لتلك الشبهات التي تثار هنا وهناك في صميم النص، لغته وأسلوبه، أو متعلقات النص، مصادره التي يشير إليها - كما يرى ثيودور نولدكه - صحف إبراهيم وأساطير الأولين...

إضافة إلى علاقات أخرى كالنبوة والنبي، وفي أقصى حد المصدر الإلهي، الذي سيكون محوريا في مناقشات مالك بن نبي، يقول في هذا الصدد محمد عبد الله دراز: «إن المسألة هي في البحث عن المصدر الحقيقي للقرآن. وأن نعرف ما إذا كان يمكن أن يكون هذا الكتاب قد استخرج من علم أو إدراك من أرسل به. أو من معرفة بشرية على وجه العموم، أو أنه على العكس من ذلك هناك أسباب لا يمكن دفعها تحذونا للاعتقاد بمصدره العلوي الإلهي «.[1] بعبارة أخرى، سيتمحور مضمون الكتاب حول فكرة جوهرية تختص بالبرهنة على مصدر القرآن، ليدلل هذا التوجه على تقليد راسخ في الثقافة العربية يقوم على نبذ الأسرار والمسكوت عنه، حتى وإن تعلق الأمر بمسائل الاعتقاد.

أما في الطرف المقابل، فقد ظلت النوايا مبيتة، بهدف إحداث خط مؤثر، يتم عن طريقه إيجاد منفذ إلى هذه الثقافة والعمل على التمدد من داخلها تحت مبررات التحديث، «لم يكن غرض العدو أن يقارع ثقافة بثقافة، أو أن ينازل ضلالا بهدى أو أن يصارع باطلا بحق، أو أن يمحو أسباب ضعف بأسباب قوة؛ بل كان غرضه الأول والأخير أن يترك في ميدان الثقافة في العالم الإسلامي، جرحى وصرعى لا تقوم لهم قائمة، وينصب في أرجائه عقولا لا تدرك إلا ما يريد لها هو أن تعرف فكانت جرائمه في تحطيم أعظم ثقافة إنسانية عرفت إلى هذا اليوم كجرائمه في تحطيم الدول وإعجازها مثلا بمثل«[2]. هذه الثقافة العربية الإسلامية في ظل مختلف تلك المعطيات المتداخلة التي فرضها العصر الراهن، يحق لأهلها أن يبذلوا ما بوسعهم لحماية مكتسباتها، رغم أن ذلك لن يتحقق للثقافة عن طريق الانغلاق لأن ذلك لا يكون مؤداه إلا مزيدا من التخلف. الأصل إذن أن تنتج الثقافة أسئلتها بما يوافق الإشكاليات المطروحة من الداخل، ولا مانع بعد ذلك من الإنفتاح على غيرها.

لقد دخل الإستشراق معركة الوجود الثقافي العربي الممتد عبر التراث والمتأصل في راهنه، ولم يكن دور المستشرقين ليقتصر على عموم المسائل، بل سيتجه الغالبية من أولئك المستشرقين إلى طرح الأسئلة الصادمة، وإن كان وراء تساؤلاتهم مجرد شبهات عارضة، لتكون تلك الأسئلة ذات صلة بمقومات الثقافة، «ويفرح المستشرقون كلما كثرت الاختلافات ليس

(١) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين. دط. طباعة بن مرابط، الجزائر ٢٠١٧. ص ١٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٠.

فقـط في القراءات (القرآنية) بل في الخطوط لزعزعة الثقة بالصحة التاريخية للنص»[١]. بعبارة أوضح، كلما أثيرت الشبهات ستجد حتما من يروج لها، لتتحول تلك العلاقة المهتزة في حقيقتها مع القرآن، لأنها أصبحت في الغالب الأعم شـكلية، ومع هـذه المستجدات التي تحاول الطعن في النص يزداد تأزم تلك العلاقة وانحرافها.

ليـس لأحد أن ينكر المعلن والخفي من أدوار الاسـتشراق على مستـوى النخب العربية، التي سـتسهم في صناعة نهضة الأمة، وتحاول أن ترسـم المصير المستقبلي لها، وسـيتم بواسـطة فريق من تلك النخب التي أصبحت تمتلك القدرة على التأثير في الحقل الثقافي والمعرفي، وأصبح بعضهـم بمثابة باحثـين «وأوجبوا على أنفسهم ترديد الأفكار التي زكاها أسـاتذتهم الغربيون. عن هذا الطريق أوغل الإسـتشراق في الحياة العربية في البلاد الإسـلامية محددا بذلك اتجاهها التاريخي إلى درجة كبيرة»[٢].

الانفتـاح على الآخر أمر مشروع لاشـك فيه، غير أن الذوبـان في ثقافته وفكره، والأخذ ببعـض ارتياباتـه بدعـوى التحديـث أو وفق أي مبرر قد يـؤدي إلى تقويـض الثوابت وهو ما سيقابل بالرفض المطلق.

١ـ٢ـ فهم صادم:

ليست المشـكلة أن تثار الأسـئلة، إنما أن تجد تلك الأسئلة في العالم الإسلامي والعربي من يجعـل منها قضية القضايا، وهو ما حدث مع مسألة انتحال (الشـعر الجاهلي)، لتتحول الأنظار إلى البيان البشري الذي لا تقوم له قائمة أمام بيان القرآن، وعلى هذا الأساس سيستهدف (إعجاز القرآن). من هنا سيعتبر مالك بن نبي، أن هذا التوجه في عقد نوع من الموازنة، بين نص القرآن والنـص البشري، لإدراك ضآلة البيان الجاهلي، أمام نظيره السماوي، سيشـتمل على مغالطة غير محمـودة العواقب، حيث أن «المشـكلة بوضعهـا الراهن إذن تتجاوز نطـاق الأدب والتاريخ، وتهم مباشرة منهج التفسير القديم كله، ذلك المنهج القائم على الموازنة الأسـلوبية معتمدا على الشعر الجاهلي بوصفه حقيقة لا تقبل الجدل»[٣].

(١) حسن حنفي: من النقل إلى العقل، علوم القرآن، ج١. ط١. دار الأمير، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩، ص٢٤٩.
(٢) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، مرجع سابق، ص ٥٠.
(٣) مالك بن نبي: المرجع نفسه، ص٥٢.

أما السبب الفعلي عند المفكر الكبير بن نبي، فإنه يتمثل خصوصا في كون البيان الرفيع الذي صاحب نص القرآن، يتم إدراكه عن طريق (الفطرة)التي تبدت بجلاء، لدى الرعيل الذي زامن نزول الوحي، أما من جاء بعد ذلك، وحاول تحكيم (العقل)، لفهم كنه البيان، فإنه يسعى خلف شيء لا يمكن إدراكه، «والحق أنه لا يوجد مسلم وخاصة في البلاد غير العربية يمكنه أن يوازن موضوعيا بين كل آية قرآنية وفقرة موزونة ومقفاة من أدب العصر الجاهلي، فمنذ وقت طويل لم نعد نملك من أذواقنا عبقرية اللغة العربية ليمكننا أن نستنبط من موازنة أدبية نتيجة عادلة حكيمة ومنذ وقت طويل أيضا تكتفي عقائدنا في هذا الباب بالتقليد الذي لا يتفق وعقول المتعلقين بالموضوعية[١].

ضمن هذا السياق، يأتي تعقيب محمود محمد شاكر، متخذا مذهبا آخر، حيث يعتبر أن منطق الاستحالة في الربط بين القرآن والشعر عند مالك بن نبي، وتصوره أنه يجدر بالمحدثين تطوير مناهج التفسير وفق منطق لا يخضع لهذه الموازنة بين الشعر والقرآن. إنما سيعتبر محمود شاكر أن تحدي القرآن لأهل الجاهلية بأن يأتوا بمثل اليسير أو القليل من صور القرآن، يظل متاحا، و إلا ما جدوى التحدي، لينتهي بعدها إلى أن «الشعر الجاهلي هو أساس مشكلة (إعجاز القرآن) كما ينبغي أن يواجهها العقل الحديث، وليس أساس هذه المشكلة هو تفسير القرآن على المنهج القديم كما ظن أخي مالك، وكما يذهب إليه أكثر من بحث. أمر إعجاز القرآن على وجه من الوجوه».[٢]

أما مكمن الخطر الذي ينبه إليه محمود شاكر فهو في تلك الدعوة التي تشكك في صحة (الشعر الجاهلي)، من خلال قضية (الإنتحال)، «لكن الشعر الجاهلي قد صب عليه بلاء كثير آخرها وأبلغها فسادا و إفسادا ذلك المنهج الذي ابتدعه مارجليوث، لينسف الثقافة به، فيزعم أنه شعر مشكوك في روايته وأنه موضوع بعد الإسلام، وهذا المكر الخفي الذي مكره مارجليوث وشيعته وكهنته والذين ارتكبوا له من السفسطة والغش ما ارتكبوا...»[٣].

قد تختلف الآراء بخصوص الوسيلة المثلى، التي يتم من خلالها فهم (إعجاز القرآن) بل وفهم ماهية ذلك الإعجاز، لأن الاهتمامات في حد ذاتها تتفاوت وتتعدد، إنما الذي لا خلاف

(١) المرجع نفسه، ص٥٣.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٢.
(٣) المرجع نفسه، ص٣٢.

حولـه هو أن تعمد بعض النخـب إلى تلقف تلك المسائل الوافدة من الغـرب، والتي تكون قد لاقت نقاشـا على مستوى الخطاب الاستشراقي، وتحت ذريعة التحديث يتم تبني تلك الأفكار وإن كـان بحسـن نية، ثم الترويج لها، «نشر طه حسين كتابه المشـهور (في الشـعر الجاهلي) ١٩٢٦، فهـذا التسلسل التاريخي معبر تماما عن تبعية أفكـار بعض قادة الثقافة العربية الحديثة للأساتذة الغربيين».[١]

مرة أخرى، فإن التمكين للنص القرآني، هو في الأصل تمكين لمضمونه وفق رؤية قادرة على اسـتيعاب تعقيدات الحاضر بدل التسليم بتلك الآراء التي نشـأت حول النص بحجة الأسبقية، أو الانبهار بتلك الأفكار والتصورات الوافدة إلينا من الغرب، والتي تحكمها نوايا مبيتة، لأنها في الغالب ظلت منسجمة مع مصالح الاستعمار. ومن تلك الأفكار الطعن في (الشعر الجاهلي) الـذي يمثـل خلفية فعلية للبيـان القرآني. إن تمكـين النص من تجديد طبيعـة العلاقة التي تجمع المسلمـين بـه، وتمكينه من فهم ما يميزه مـن (إعجاز) وفق رؤية حـذرة لا تسلم بأفكار مبطنة الأهداف.

٢ـ صوت العقل

المقصـود هنا بصوت العقل، هو هـذا التوظيف للأدوات المنهجية التـي توفر قدرا معتبرا من الحياد، بعدم إقحام النوازع الذاتية، بغرض استخلاص نتائج موضوعية.

٢ـ١ـ الرؤية والمنهج:

أ- الموقف الفكري: يمكننا رصد مجال هذا الموقف، من خلال جملة من الإشارات الظاهرة والضمنية، حيث يعلن المؤلف مالك بن نبي انحيازه إلى الثقافة العربية الإسـلامية الممتدة عبر التاريـخ، غير أن همومه الحضارية تنطلق من حاضر هـذه الثقافة، «وإذا اتفق لمؤمن أن ملك موهبـة الكتابـة فوق هاتـين الصفتين من الإيمان والعلـم، فإن واجبا آخر يقع عـلى عاتقه: إنه إخـراج ثمار عمله بلغة عصره، كما يفعل ابن نبي يخاطب قومـه بلغتهم».[٢] إذا كان هذا رأي عبد الله بن دراز، فإن حكمه لا يصدر إلا بعد تحليل مضامين كتاباته.

(١) المرجع نفسه، ص٥٢.
(٢) المرجع نفسه، ص١١.

لأن تلك الثقافة المعبر عنها، تنطلق من واقع مأزوم، ستعدم روح المبادرة على مستوى الإنتاج الثقافي بمختلف صنوفه، وهو ما سيجعل الانفتاح على الثقافات المحيطة أمرا لا مفر منه. ليكون موقف الكاتب ابن نبي موقف من يعلن انتماءه إلى مرجعيته الإسلامية العربية، ويحاول في المقابل استيعاب لحظة التطور التي أدركها الغرب، بغرض تمكين ثقافته المأزومة من تلك الوسائل المستخدمة بهدف تحسين وضعية هذه الثقافة عموما والثقافة الوجدانية التي تعبر عن الإطار الخاص للأمة على وجه التحديد.

ب- الممارسة المنهجية:

يستأنس المؤلف ابن نبي بالمنهج (الشكي) الديكارتي، ويبدي في الآن نفسه حساسية الإطار النظري لهذا المنهج، مقابل توظيفه في مسائل ذات صلة بالدين، «فالمؤلفون المعاصرون يحاولون شرحه ظاهرة النبوة في ضوء تفسير تاريخي مجرد، تبعا لمنهج (ديكارت) الذي يرجع كل شيء إلى معيار أرضي».[1] بعبارة أوضح، فإن نظرية (ديكارت)، ارتبطت بالإنسان والطبيعة، ولم تأخذ ببعد الإله والغيب.

هذا الإطار الشامل، سيتبعه المؤلف بمنهج تاريخي خلال رصده لتسلسل الأحداث، وكذلك المنهج المقارن من خلال عقد بعض المقارنات ومحاولة فهم التفاوتات بين مضامين النصوص لاسيما الكتاب المقدس بشقيه العهد القديم والعهد الجديد مع القرآن الكريم. بينما لازمه المنهج النفساني (تحليل النفس)، بأدواته التحليلية ومصطلحاته، حيث عمد إلى قراءة الوقائع التي تثبتها النصوص المدونة، لتكون تحليلاته منسجمة مع صوت العقل؛ من هنا سنجد أن مالك بن نبي في معرض حديثه عن النبوة، يعتبر أن «المشكلة على وجه التحديد هي معرفة ما إذا كان الأمر يتعلق بأشياء ذاتية محضة أو بظاهرة موضوعية، (...) لكننا لا نستطيع ملاحظة ظاهرة النبوة إلا من خلال شهادة النبي وفي محتويات رسالته المتواترة المنزلة، فالأمر يتعلق إذن بمشكلة نفسية من ناحية وتاريخية من ناحية أخرى، ولنا أن نلاحظ أولا وقبل كل شيء أن بعث نبي ما ليس حدثا فردا، ليكون غريبا نادرا، بل هو على العكس من ذلك ظاهرة مستمرة بانتظام بين قطبين من التاريخ منذ إبراهيم إلى محمد ﷺ، واستمرار ظاهرة تتكرر بالكيفية نفسها، يعد شاهدا علميا يمكن استخدامه لتقرير مبدأ وجودها، بشرط التثبت من صحة هذا

(١) المرجع نفسه، ص٧٧.

الوجـود بالوقائع المتفقة مـع العقل، ومع طبيعة المبدأ.»[١] توضح هـذه الملحوظات، كيف أن الدراسـة تجعل من نبوة محمد جزءا من كل، وهذا يكسبها حالة من التشابه، التي تدخل ضمن نسق معلوم، يسهل النظر إليها كظاهرة.

إذا كانـت هذه النتائج المرصودة عـن حقل (النبوة) عبر التاريخ، قد خلص بها المؤلف إلى كونهـا (ظاهرة)، تجتمع فيها مختلف شروط هـذا الوصف العلمي. أما حقيقة النبي على اعتبار أنـه الذات الحاملة للنبوة، فإنه بدوره سـينظر إليه، بنوع من التجـرد العاطفي لتحقيق إحاطة علمية شـاملة، وتفادي الشـخصنة والتقديس، وهو ما توفر للدارس، حيث يرى مالك بن نبي أن الأنبياء «يمثلون (...) الإنسان في أسـمى حالات كماله البدني والخلقي والعقلي، وشـهاداتهم الاجتماعيـة تحظى في نظرنـا بالثقة التي تستحقها. (...) نلجأ لهذه الشـهادة لـكي نثبت القيمة التاريخيـة للوقائـع التي نخضعهـا لنقدنا ثم يبقى علينـا أن نحلل مجموع هـذه الوقائع في ضوء العقل المتحرر من ربقة الشك المطلق الذي لا هدف له».[٢] بعبارة أدق، فإن توظيف الشك إذا تحول إلى عملية هدم، يكون قد خرج عن الإستخدام العقلي؛ والأنبياء ظلوا مستهدفين من قبل خصوم دعوتهم، ومع ذلك فقد فرض التزامهم انتزاع الإعتراف من أعدائهم قبل أتباعهم.

بـدا جليا في هذه المعالجة التي ألمحت وصرحت في مواضع كثيرة بضرورة تجديد المناهج، ومـن ملامـح ذلك التجديد، قلة تتبع الأسـانيد والروايات، إنما كان مالـك بن نبي ينصرف إلى المـتن القرآني الذي أكد على أهمية أن نتلقاه (متواتـرا)، ولم يكتف حتى زاد على تأكيد صحة النص، وأما بقية النصوص من حديث وشـعر فقد ظلت تستخدم باحتشـام. سـيكون موقف المؤلف بن نبي من تعدد الروايات، حول نشـأة (النبي) و إشـارات التعظيم محل تشـكيك جلي وهـو، مـا نلمسه في ما يلي: «لقد أحاطت الروايات الإسـلامية، الوسـط العائلي للنبي وميلاده وطفولتـه بالخوارق المنبئة بما ينتظره من مستقبل فريد رائع، ولكن ليس من الضروري أن نهتم بدرجة صحتها التاريخية لأنها لا تهم موضوعنا مباشرة (...)»[٣].

الموضوع بحاجة إلى الأخذ بأخبار لا تتعارض مع معطيات الواقع، تكون قريبة إلى منطق الحياة الإنسانية ولا تتعارض مع بديهيات العقل.

(١) المرجع نفسه: ص٧٩.
(٢) المرجع نفسه، ص٨٠.
(٣) المرجع نفسه، ص١٠١.

الروايـة تخفي وراءها أهـواء الرواة، وجهل الراوي فرصة للنسبـة إليه، وهذا كله يتنافى مـع روح المناهـج الحديثة « كلما كـان الراوي مجهـولا زادت نسبة الخيـال أي الوضع. وكلما كـان معلوما قل. وكلـما تأخر الراوي زادت نسبـة الوضع. وكلما تقدم قـل. فالتاريخ يساعد على الإبداع عن طريق الخيال الشعبي».[١]

لأجل ذلك سـيعتبر المستشرق ثيودور نولدكه أن «النقد ليس سهلا لأن النزعة التي تكمن وراء أية رواية تقليدية لا يمكن الكشف عنها»[٢].

الرواية انتهت كممارسـة منهجية بعد تدوين النصوص، والعصر ينسجم مع لغة المناهج العلمية، وبواسطتها ستعاد بناءا على القناعات التي ارتخت وضعفت.

٢ـ٢ـ تجاوز القراءة الإسقاطية:

ظل المنطلق الذي تعتمده الكثير من الدراسات، لفهم كنه القرآن، والوقوف على (إعجازه)، الإنصراف عن حقيقة النص، كنسق قائم بذاته بمختلف مضامينه وتجاربه بإعجازه الأسـلوبي أو البرهاني، والتوجه إلى النبي المبلغ، و إلباسه صنوف المعجزات، وجعل سيرته لا تقوم إلا على المعجزة، ظنا أن هذا التتبع لأخبار المعجزات أو الأحاديث المختلفة، سـيكون دليلا قطعيا على كون النص صنيع هذا الجو من المعجزات.

أمـا إخراج المشـهد وفق هذه المعطيـات، بما يناقض لغة العـصر، و يسقط نطاق الأسرار والخفايا التي تنتفي مع روح العقل، فسيتحقق اكتماله من خلال إسـقاط هذه السيرة الزاخرة بمختلـف أنـواع المعجزات، لتدلل قطعيا عـلى القرآن الذي ليس لـه أن يتحقق نزولا إلا ضمن هـذا الجو الـذي يتعارض مع صـوت العقـل، و ينتهي إلى حد الخيـال والأسـاطير وخلق هالة من الماورائيات.

للوقوف على الكثير من الوقائع التي سـتثبت بما لا يدع مجالا للشـك، فإن مؤلف (الظاهرة القرآنية) ظل باسـتمرار يؤكد يقينا على كون النبي بشر تم تكليفه بحمل الرسـالة، لأجل ذلك سـيواجه صعوبات جمة في تحمل هذا التكليف خصوصا في بدايات اتصال الوحي به. على هذا

(١) حسن حنفي: من النقل إلى العقل ن علوم الحديث، ج٢. مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠١٣. ط١. ص٥٧.
(٢) ثيودور نولدكه: تاريخ القرآن، تعديل فريديريش شفاي، ترجمة جورج تامر. منشورات الجمل، كولونيا، المانيا، بغداد، ٢٠٠٨، ص٥٤.

الأساس فإن النبي يونس وأرمياء وكذلك محمد، «استولت عليهم أخيرا دعوتهم، فمقاومتهم تدل على التعارض بين اختيارهم والحتمية التي تطوق إرادتهم وتتسلط على ذواتهم، وفي هذه الدلائل قرينة قوية للنظرية الموضوعية عن الحركة النبوية»[١].

أما محاولة إثارة القليل أو الكثير من الشبهات حول فترات عزلة النبي، ما سيجعل بعضهم يطرح شكوكا حيال هذا السلوك، فإن المؤلف بن نبي يعمد إلى تفنيد كل شبهة حاولت قراءة هذا السلوك بما يخدم نوازعها، وذلك وفق منطق العقل الرسين، الذي يقر بالعزلة، ويدحض كل شيء قد ينسب إليها، حيث لم تكن تلك الفترات من العزلة بالطويلة، ولا أدت تلك اللحظات من التفرد بالذات - كما يرى مالك بن نبي-إلى مجافاة المجتمع الذي كان ينتمي إليه، وأهم شيء، «إذن فليس هناك من سبب لأن ننسب ل(الصادق الأمين) نية مبيتة للتأمل في مشكلة ميتافيزيقية لحظة تهيئه للانسحاب والعزلة بعد الزواج...»[٢].

تلقي النبي للوحي، لأجل ذلك، سيكون فوق إرادته، وطلبه للوحي بعد أن انقطع عليه، لمدة طويلة كذلك كان فوق إرادته، وقد ترتب على ذلك حزن النبي ﷺ وأسفه الشديد وقد عبر عنه بضعفه البشري؛ وعليه يقر مالك بن نبي: «ونحن نرى أن هذا الجهد يؤكد في الواقع بصورة قاطعة استقلال الظاهرة القرآنية عن ذات موضوعنا (النبي).

وما كان لنا بداهة أن نقرر أن الحل الثاني للأزمة النفسية يمكن أن يتأخر لو كان مصدره هو اللاشعور، لدى إنسان لم يسع إلى إخماد الظاهرة وكبتها في نفسه بل أنه على العكس قد وجه كل إرادته وكل وجوده لتيسير ظهورها»[٣].

القرآن -إذن- ظاهرة مستقلة يجدر أن ندرسها بناء على هذا الإستيعاب، الذي بمجرد أن تحقق للنبي محمد وأدرك يقينا أنه مكلف بتبليغ نص الوحي، لم تثنه جميع المغريات والمصالح المادية والمعنوية، أن يترك رسالته تلك، وهذا الأمر سيجعل المسؤولية تنسحب على جميع المسلمين متى تحقق لهم هذا الإدراك، بدل أن يتوقف تبليغ القرآن ويقتصر على النبي محمد لوحده، إننا وفق هذا الفهم سنكون أمام مسؤولية تمكين للنص مستمرة عبر العصور.

(١) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية. مرجع سابق، ص٨٤.
(٢) المرجع نفسه، ص١٠٩.
(٣) المرجع نفسه، ص١١٨.

٣ ـ مجال النص أوسع

٣ ـ ١ ـ سياق النص:

القرآن الكريم لم يكن مرآة عصر ولا سجل مجتمع ولا سيرة فرد؛ ومع ذلك فإنه يحسب على سياق مكاني وزماني، نظرا لتدخل الوحي المنزل في قضايا بعينها بغرض تشريعي أو لحكمة إصلاحية، فأعطى ذلك كله أفضلية مثلى لطبيعة نزوله منجما، عبر ثلاث وعشرين سنة.

طريقة نزول القرآن بكيفية (منجمة)، خلال مرحلة مكية تلتها أخرى مدنية، ستجعل المسلمين يعايشون القرآن لحظة بلحظة، «وإذا كانت المرحلة المكية في جوهرها عهدا روحيا هو عهد النبي الداعية الذي يرشد المصطفين الأخيار، فإن المرحلة المدنية استمرار للمرحلة الأولى، ونتيجة زمنية لها في وقت واحد، فالنبي والقائد سيتحدان الآن في ذات واحدة تدعو وتقود جموع المؤمنين»[١].

القرآن تفاعل مع سياق نزوله، القرآن أشار إلى الكثير من الأحداث دون تفصيل في جزئياتها، وألمح إلى أحداث أخرى، وغض الطرف حتى عن أصعب اللحظات التي مر بها الرسول مبلغ الوحي.

القرآن ظاهرة مستقلة عن ذات النبي، «إن محمد ذو فكر موضوعي، لا يميل إلى تأييد دعوته بغير معجزته الوحيدة (القرآن)»[٢]. الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، حيث يصل محمد إلى مراحل من الوعي المتقدم والاستيعاب الشامل للحقائق بعقل راشد، يعلق مالك بن نبي بالقول: «أما يقين النبي فقد كان كاملا مع وثوقه بأن المعرفة الموحى بها غير شخصية وطارئة وخارجة عن ذاته»[٣].

محمد النبي الذي عايش محنة بحجم محنة حادثة الإفك، ولم يستطع تبين الحقيقة الكامنة بشأنها إلى أن نزل الوحي ببراءة المتهمين، يظل مجرد مبلغ للوحي، من لدن عزيز حكيم.

---

(١) المرجع نفسه، ص١٢٣.
(٢) المرجع نفسه، ص١٢٨.
(٣) المرجع نفسه، ص١٣٢.

٣ـ٢ـ النص ورؤية العالم:

تتحـدد الرؤيـة عـلى مستوى كل شـخص؟، بناء عـلى إمكانياته التي تتيحهـا له قدرته الذاتيـة، وتتسـع مدارك الرؤية بامتداد مجـال الوعي. من هنا فإن إمعـان النظر في المتاح من أدوات المعرفة التي قد تمكن أهل شبه الجزيرة العربية من رفع نطاق وعيهم، سيكون محدودا لا يتعـدى بساطـة البيئة الصحراوية، وتلك الحواضر الناشـئة الصغيرة التي قد تشـهد بعض التجمعـات الموسـمية المقصـودة أو العفوية. النتيجـة بناء عليه، لم تكن هناك من وسـائط للتعليم إنما ظل كل شيء رهن هذه الممارسة ضمن تجارب الحياة اليومية. بل إن تواجد اليهودية أو المسيحية في الجزيرة العربية لم يصحبه أي نشاط مميز «(...) مصادر العصر الجاهلي التاريخية لا تصنـف أي كنيسـة في مكة أو أي كنيس أو دير في ضواحيهـا، لقد انسحب الحنفاء فقط في أماكـن منعزلة دون أن يقطعـوا صلاتهم تماما بالمجتمع ولم تكن لهـم طريقة في تصوفهم سـوى أنهم كانوا يمارسون الزهد أو التخلي عن الدنيا، كما يدل على سمة الصحراء وطابعها، في نفوسـهم»[1]. النبي محمد الذي صارت له نزعة من العزلة، سـيكون اقرب إلى هذا المسلك العفوي منه إلى الرهبنة.

يتنـزل القـرآن وتبدأ معـالم الرؤية الجديدة في التشـكل، وقد قطعت الصلـة مع مصادر الديانـات السماويـة السابقة، وعليه فقد «اتجـه الوحي القرآني إلى أن يقرر النتيجة الحاسـمة للفكرة التوحيدية (الله واحد، مخالف للحوادث، رب للعالمين). فأخرج بهذه الطريقة الحاسمة ذات الله جل شـأنه مـن نطاق الأنانية اليهودية، والتعدد المسيحـي، ولقد تقررت هذه العقيدة الجوهرية للإسلام الموحد في صورة من أربع آيات ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص]»[2].

رؤيـة العـالم في القرآن انطبعـت بالتوجه للأخـلاق الرفيعة على مستوى كـان ينبغي أن يكـون مطمحا للإنسان. وأما على الصعيد الكوني الطبيعي، فإن رؤية العالم امتدت واتسعت حتـى فاقت مجال الصحراء وما يستوعبه عقل أهل الصحراء، فتناول الحديث عن بعد الأجرام السماويـة والنجوم، وخاض في أعماق البحار. ثم كان حديث القرآن عن عالم يأتي بعد انتهاء

(١) المرجع نفسه، ص١٠٧.
(٢) المرجع نفسه، ص١٨٥.

الآجـال، إنها (الآخرة)، الجنة والنار. ثم عالم الغيب الذي يؤمن به المسلمون تسليما مادام الله قد أخبر عنه.

مقابل هذه الرؤية الممتدة، والمتأصلة بحيث تخص القرآن لوحده دون غيره لم يسبق إليها من أحد، تأتي الرؤية البشرية للعالم محدودة يأسرها نص القرآن، وهذا سيعبر عنه مالك بن نبي بـ (الفكرة المحمدية)، حيث أن «الوحي القرآني ليس أبعد من الفكرة المحمدية فحسب ولكن أبعد مما أوحي فعلا. الفكرة المحمدية، إشـارة النبي عـلى بستاني بأن يؤبر نخله بكيفية بعينها، غير أن البستاني لم يأخذ بتلك الإشارة»[١].

الظاهـرة القرآنيـة مستقلـة عن النبي محمد، وعـن معطيات العالم الذي عـاش فيه محمد، وتعرف على معارفه أو لم يتعرف.

٤ـ تفعيل المضامين

أحاط القرآن الكريم بالكثير من الموضوعات، تراوحت بين الطبيعي وما وراء الطبيعي، ظاهر سلوك الإنسان، وباطن نفسه الخفية.

يقـول تعـالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعـام: ٣٨]. هـذه الرحابـة وهـذا العمـق والإمتـداد، هـذا الرصد والتتبع، يعلق عنـه المؤلف بن نبي: «إنه لو أتيح لأحـد الناس أن يقرأ قـراءة واعية يـدرك خلالها رحابة موضوعـه، فلن يمكنه أن يتصور الـذات المحمدية إلا مجرد واسـطة لعلـم غيبي مطلق»[٢]. هذا الفصـل البين بين ذات النبي ومضمون القـرآن، لا يراد به تحقيـق الأفضلية للقـرآن لأنها متحققة، ولا يراد به كذلك جحود فضل كان للرسـول، إنما هو محاولة تمييز للظاهرة القرآنية بمصدرها الإلهي.

٤ـ١ـ الأخلاق:

تدور الكثير من النقاشـات حول مسالة الأخلاق وعلاقتها بالدين، وانحراف حال الأمم التي حادت عن الأخلاق. لا يتسع مجال هذا البحث إلا لقدر يسير من هذا النقاش، سـنحاول تناوله وفق الأبعاد التي رسمها كتاب (الظاهرة القرآنية).

(١) المرجع نفسه، ص١٥٨.
(٢) المرجع نفسه، ص١٨٠.

يكشف هذا الكتاب عن ملاحظات بارعة بخصوص المضمون الأخلاقي، حيث يعتبر «أن درس القرآن الأخلاقي لهو ثمرة نظرة نفسية متعمقة في الطبيعة البشرية تصف لنا النقائص التي ينهى عنها وينفر منها والفضائل التي يدعونا إلى التأسي بها من خلال حياة الأنبياء أولئك الأبطال والشهداء في سجل ملحمة السماء (...)، يدفع القرآن المؤمن إلى الندم الصادق، حين يعده بالغفران، أساس التربية الجزائية في الأديان السماوية»[١]. بمعنى أن السلوك البشري هو محصلة لتلك النوازع الباطنية التي يجدر بالمرء أن يواجهها ويجتثها من دخيلته.

ينظر بن نبي، إلى تلك المعالجات التي تناولت الأخلاق وفق المبررات المادية النفعية من لذة وألم أو من جلب مصلحة ودفع ضرر، ليتضافر مع ذلك نزوع فردي أناني، وفي الأثناء سيكون استشراف النتائج مغيب، «إن الأخلاق اللادينية -بقدر ما لهذا التعبير من معنى- تقيم أعمال الإنسان على أساس المنافع الشخصية العاجلة، التي صارت أساس المجتمع المدني، على أن الأخلاق الدينية (التوحيدية)، تحترم أيضا المنفعة الشخصية، ولكنها تمتاز برعاية منافع الآخرين، وهي بذلك تدفع الفرد إلى أن ينشد ثواب الله قبل أن يهدف إلى فائدته».[٢]

ولمزيد من التفصيل حول الأخلاق التي يطرحها نص القرآن فإنه «سيأتي بمبدأ إيجابي أساسي، كما يكمل منهج الأخلاق التوحيدية، ذلك المبدأ هو (لزوم مقاومة الشر)، فهو يخاطب معتنقيه بقوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

من جهة أخرى يقر القرآن فكرة الجزاء أساس الأخلاق التوحيدية».[٣]

أما حقيقة الجزاء «فإن القرآن يقيم بناءه الخلقي على أساس القيمة الخلقية للفرد، وعلى العاقبة الدنيوية للجماعة، فأما الفرد فإن ثوابه مستحق يوم الحساب، ومن أجل هذا يقرر القرآن صراحة القيمة الدينية للفرد في قوله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [المدثر: ١١][٤].

(١) المرجع نفسه، ص١٧٩.
(٢) المرجع نفسه، ص١٩١.
(٣) المرجع نفسه، ص١٩١.
(٤) المرجع نفسه، ص١٩١.

في حين «وأما الجماعة فإن جزاءها عاجل يلفتنا القرآن إلى قصته في هذه الدنيا حين يدعونا دائما إلى تأمل العقاب الدنيوي في عواقب الأمم البائدة»[١].

تفعيل الأخلاق في الجماعة، يكون-بفعل هذه المنفعة العاجلة التي تجعل من المجتمع جسما قويا يتحرك نحو الأفضل، ولا ينخر قلبه هذه المسائل تظهر غير ذات قيمة لكنها في النهاية تشل كل حركة.

٤ـ٢ـ واقع الاجتماع:

لأجل فهم معمق للرؤية القرآنية حيال المجتمع، يرجع ابن نبي إلى رؤية الكتب السماوية بخصوص هذا الأمر، حيث « كان الغرض من الشريعة الموسوية أن تضع مبادئ مجتمع موحد ناشئ، وأن توثق الصلات بين أفرادها، أولئك الأفراد المغمورين في مجموعات الشعوب الوثنية. وبذلك تكون هذه الشريعة قد تصورت المشاكل الاجتماعية من الوجهة الإسرائيلية الداخلية. ثم أننا شريعة الحب لدى عيسى تفتح أكثر من صلة باب الرحمة المسيحية لأهل الفطرة من الوثنيين».[٢]

اليهودية بتشريعاتها استمرت ديانة قومية لجماعة منغلقة، تنعت غيرها من الشعوب بالأمميين، ولا يسري عليهم من الأحكام ما يخص العنصر اليهودي. في حين أن المسيحية روجت للمحبة والرحمة، وبدل توجيه الفرد للإقلاع عن الذنب، تم تشريع (الإعتراف) أمام رجل الدين، حيث تحولت الكنيسة إلى مخزن أسرار للأفراد، ومع مرور الوقت صارت سلطة مركزية متنفذة لم يكن من السهل تخطيها وتجاوزها إلى الإصلاح الديني المعروف.

أما الجديد الحاصل حين «جاء القرآن وجدناه يتناول -في نصه- المشكلة من الزاوية الإنسانية الشاملة ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾ [المائدة: ٣٢][٣].

على مستوى البنية الداخلية للمجتمع، وحتى يتحقق الفعل الحضاري، شرع القرآن أحكاما عديدة للقضاء عل الكثير من الآفات، منها السرقة والزنا وعالج مشكلة شرب

(١) المرجع نفسه، ص١٩١.
(٢) المرجع نفسه، ص١٩٢.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٩٢.

الخمر، وقطع الطريق أمام القمار وتبديد المال، وهذا ما سيتحول لاحقا في (الفقه)، إلى (فقه المقاصد). هذا المجتمع المتماسك هو الذي ينبغي أن ينبذ أخلاقا قد تتبدى هينة (التجسس والظن والإغتياب...)، لأن تلك الأخلاق هي التي سينجم عنها مضار كبرى تؤدي إلى تخريب نسيج المجتمع. القرآن نظر بالتالي إلى النفس المزدوجة (المنافق)بعين الرفض والذم المطلق لهذا السلوك.

بل «لقد كانت أحد النتائج الخطيرة لهذا المبدأ العام أن وضعت مشكلة الرق للمرة الأولى في تاريخ الإنسانية في طريق الحل، فإن عتق الرقيق كان مرحلة ضرورية لإلغاء الإسترقاق، الذي كان أساسا جوهريا للنشاط في المجتمعات السابقة»[1].

كرامة الإنسان مطلب يلح عليه القرآن، وحرية إرادة الإنسان في المعتقد أمر ضروري ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، إن « كلمة التوحيد أو الإيمان في القرآن هي علامة تحرر الذات من كل شائبة فرضت عليها. هذه الذات ليست مغلقة، يجب أن يسعى الإنسان لمعرفة الإنسان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ﴾ [الحجرات: ١٢]»[2].

تفعيل هذه المضامين يقتضي الرجوع إلى نص القرآن فهما واستنباطا، والنتيجة استعادة تلك الثقة التي فقدها الإنسان المسلم في ذاته وفي مبادراته، وفقد معه التواصل الفاعل مع نص القرآن العظيم.

خاتمة

الكتاب استطاع باقتدار أن يحرك جملة من المعطيات المتداولة والمعروفة، وفق رؤية مغايرة استطاعت في النهاية أن تقدم القرآن بقناعة جديدة تجدد معها علاقة الإنسان المسلم بهذا النص الخالد. (الظاهرة القرآنية) كان منطلق هذا الكتاب قائما على (الشك)، وانتهى منه صاحبه إلى المصدر الإلهي العلوي للقرآن، فتحقق له (اليقين المنشود)، ووظف الكاتب كذلك (السياق)، في أحداث وأشخاص ونبوة ونبي ليستقر به المطاف إلى إدراك استقلالية النص، وقد فهم يقينا أن النص القرآني، ظل معزولا عن الواقع، وظلت علاقة الإنسان

(١) المرجع نفسه، ص١٩٢.

(٢) مصطفى ناصف: مسؤولية التأويل. ط١. دار السلام، مصر، القاهرة، الإسكندرية، ١٤٢٥ه، ٢٠٠٤م، ص٢٠٩.

بالقــرآن يحكمها الكثير مــن اللبس، وبفعل تلك القراءات والمقارنات ســيجعل نص القرآن أقرب مايكون إلى واقعنا، وأقرب ما نكون إلى مسؤولين جدد على تبليغه وفق رؤى جديدة تناسب هذا العصر.